مجموعة سيرة الرسول ﷺ

باشراف

محمد أحمد برانق

(١١)

بدء الجهاد

الطبعة الأولى المعدّلة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

« وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ » .

هَذَا مَا كَانَ يَقُولُهُ الْمُنَافِقُونَ مِنَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ لِلْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ ، إِذَا قَابَلُوهُمْ وَجْهاً لِوَجْهٍ ، ثمَّ مَا كَانُوا يَقُولُونَهُ لأَنْفُسِهِمْ وَلِبَعْضِهِمْ بَعْضاً إِذَا مَا خَلَّفُوهُمْ وَأَدَارُوا لَهُمْ ظُهُورَهُمْ .

فَلَمْ يَكُنْ يَهُودُ الْمَدِينَةِ فَقَطْ هُمُ الَّذِينَ يُنَافِقُونَ النَّبِىَّ وَأَصْحَابَهُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيُظْهِرُونَ لَهُمْ غَيْرَ مَا يُبْطِنُونَ ، وَإِنَّمَا كَانَ هُنَاكَ أَيْضًا مِنَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ مَنْ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ نِفَاقاً ، وَأَكْثَرُ مِنْهُمْ خِدَاعًا .

كَانَ لاَ يَزَالُ بَيْنَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ مَنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ، فَبَقُوا عَلَى شِرْكِهِمْ وَضَلاَلِهِمْ ، وَكَانَ لاَ يَزَالُ بَيْنَهُمْ مَنْ لَمْ يَدْخُلُوا فى الإِسْلاَمِ إِلاَّ نِفَاقاً وَرِيَاءً عِنْدَمَا رَأَوْا مَا رَأَوْا مِنْ إِقْبَالِ قَوْمِهِمْ عَلَى الدُّخُولِ فِيهِ .

وَكَانَ عَلَى رَأْسِ مَنْ بَقُوا عَلَى شِرْكِهِمْ وَضَلاَلِهِمْ أَبُو عَامِرِ بْنُ صَيْفِىّ ، وَكَانَ عَلَى رَأْسِ الْمُنَافِقِينَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَىِّ بْنِ سَلُول .

وَكَانَ أَبُو عَامِرٍ مِنْ أَشْرَافِ الأَوْسِ ، لَهُ فى قَوْمِهِ سِيَادَةٌ ، وَلَهُ عَلَيْهِمْ كَلِمَةٌ مُجَابَةٌ مُطَاعَةٌ ، فَلَمَّا قَدِمَ الرَّسُولُ إِلَى الْمَدِينَةِ رَأَى أَبُو عَامِرٍ مِنْ مُسَارَعَةِ قَوْمِهِ إِلَى اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ، وَمِنْ شِدَّةِ تَلَهُّفِهِمْ عَلَى الإِيمَانِ بِرِسَالَتِهِ - مَا لَمْ تَسْتَطِعْ نَفْسُهُ مَعَهُ احْتِمَالَ الْبَقَاءِ بِالْمَدِينَةِ ، فَخَرَجَ فى نَفَرٍ مِنْ أَتْبَاعِهِ إِلَى مَكَّةَ ، حَيْثُ

كَانَتْ هُنَاكَ الْعَدَاوَةُ عَلَى أَشدِّهَا ضِدَّ مُحَمَّدٍ ، فَأَخَذَ يَعْمَلُ عَلَى تَزْكِيَتِهَا ، وَإِشْعَالِ نَارِهَا .

أَمَّا عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ فَكَانَ مِنْ أَشْرَافِ الْخَزْرَجِ ، لَهُ بَيْنَهُمْ مَكَانَةٌ ، وَلَهُ شَرَفٌ وَسِيَادَةٌ ، لاَ يُضَارِعُهُ فِيهَا مِنْ قَوْمِهِ أَحَدٌ .

وَكَانَ الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنْ يَتَّخِذُوهُ لَهُمْ مَلِكاً : يَأْتَلِفُونَ تَحْتَ حُكْمِهِ ، وَيَتَصَافَوْنَ تَحْتَ رِعَايَتِهِ ، بَعْدَ أَنْ كَادَتِ الْخِلاَفَاتُ وَالْحُرُوبُ بَيْنَهُمْ تُودِي بِهِمْ ، وَتُورِدُهُمْ مَوَارِدَ الْهَلاَكِ وَالْفَنَاءِ ، وَكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَقْدَمَ مُحَمَّدٌ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَقَبْلَ أَنْ يُتَابِعَ الأَنْصَارُ مِنَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ الرَّسُولَ ، وَيُعَاهِدُوهُ عَلَى مُحَالَفَتِهِ وَنُصْرَتِهِ .

وَأَتَى مُحَمَّدٌ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَالْتَفَّ الأَنْصَارُ مِنَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ حَوْلَهُ يُسَارِعُونَ إِلَى الدُّخُولِ فى دَعْوَتِهِ ، وَالإِيمَانِ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ .

وَدَخَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ فى الإِسْلاَمِ مُتَأَفِّفاً كَارِهاً ، بَعْدَ أَنْ رَأَى أَكْثَرَ قَوْمِهِ

قَدْ أَبَوْا إِلاَّ الدُّخُولَ فى الإِسْلاَمِ ، وَلٰكِنَّهُ ظَلَّ وَفى نَفْسِهِ نِفَاقٌ ، وَفِى سَرِيرَتِهِ ضِغْنٌ وَحِقْدٌ عَلَى الرَّسُولِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَنْسَى أَنَّهُ لَوْلا قُدُومُ مُحَمَّدٍ إِلَى الْمَدِينَةِ لَكَانَ هُوَ مَلِكَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، وَلَكانَ هُوَ السَّيِّدَ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا !

وَهٰكَذَا كانَ ابْنُ أُبَيٍّ عَلَى رَأْسِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كانُوا يُظْهِرُونَ الإِيمَانَ لِمُحَمَّدٍ ، وَيُبْدُونَ الإِسْلاَمَ لِصَحَابَتِهِ ، وَلٰكِنَّهُمْ فى سَرِيرَةِ نُفُوسِهِمْ يَكْتُمُونَ نِفَاقًا ، وَيُخْفُونَ ضِغْنًا ، وَيُكِنُّونَ حِقْدًا ، كَانَ يَنَالُ النَّبِىَّ مِنْ جرائِهِ الْعَنَتُ وَالإِرْهَاقُ ، وَيُصِيبُ الْمُسْلِمِينَ بِسَبَبِهِ الضُّرُّ والأَذَى .

خَرَجَ النَّبِىُّ يَوْماً لِعِيَادَةِ رَجُلٍ مَرِيضٍ مِنَ الأَنْصَارِ ، وَهُوَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ، وَقَدْ رَكِبَ حِمَارًا كُسِيَتْ بَرْذَعَتُهُ بِقِطْعَةِ نَسِيجٍ مِنَ الْقَطِيفَةِ ، وَقَدْ أَرْدَفَ مِنْ خَلْفِهِ وَلَدًا لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ، يُدْعَى أُسَامَةَ .

فَمَرَّ الرَّسُولُ فى سَيْرِهِ عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ فى جَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ يَجْلِسُونَ فى ظِلِّ حِصْنٍ عَالٍ مِنْ حُصُونِ الْمَدِينَةِ .

فَكَرِهَ الرَّسُولُ أَنْ يَمُرَّ عَلَى هٰؤلاَءِ الْقَوْمِ وَهُوَ رَاكِبٌ ، فَنَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ ، وَقَصَدَ إِلَيْهِمْ ، وَأَلْقَى عَلَيْهِمُ السَّلاَمَ وَجَلَسَ بَيْنَهُمْ قَلِيلاً ، فَتَلاَ شَيْئاً مِنَ الْقُرْآنِ ، وَذَكَرَ اللهَ ، وَدَعَا وإِلَيْهِ ، وَبَشَّرَ مَنْ يُؤْمِنُ بِرِضَاءِ اللهِ عَنْهُ ، وَحَذَّرَ مَنْ يُنَافِقُ بِغَضَبِ اللهِ عَلَيْهِ ، فَعَلَ مُحَمَّدٌ كُلَّ هٰذَا وَابْنُ أُبَىٍّ سَاكِتٌ صَامِتٌ لاَ يَنْبِسُ ، فَلَمَّا فَرَغَ الرَّسُولُ مِنْ مَقَالَتِهِ قَالَ لَهُ ابْنُ أُبَىٍّ :

يَا هٰذَا ؟ إِنَّهُ لاَ أَحْسَنَ مِنْ حَدِيثِكَ هٰذَا إِنْ كَانَ حَقًّا ، فَاجْلِسْ فى بَيْتِكَ ، فَمَنْ جَاءَكَ فَحَدِّثْهُ إِيَّاهُ ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِكَ فَلاَ تَغُتَّهُ بِهِ ، وَلاَ تَأْتِهِ فى مَجْلِسِهِ بِما يَكْرَهُ مِنْهُ .

حِينَئِذٍ هَبَّ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ – وَكَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الصَّادِقِينَ – يُعَقِّبُ عَلَى كَلاَمِ ابْنِ أُبَيٍّ ، وَيَقُولُ لِلرَّسُولِ :

بَلْ فَاغْشَنَا بِهِ ، وَائْتِنَا فى مَجَالِسِنَا وَدُورِنَا وَبُيُوتِنَا ، فَهُوَ وَاللهِ مِمَّا نُحِبُّ ، وَمِمَّا أَكْرَمَنَا اللهُ بِهِ وَهَدَانَا لَهُ .

وَنَهَضَ الرَّسُولُ مُغَادِرًا مَجْلِسَ الْقَوْمِ ، وَفى وَجْهِهِ مِنْ كَلاَمِ ابْنِ أبىٍّ أَثَرٌ عَمِيقٌ ، قَرَأَهُ فى وَجْهِهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ حِينَ دَخَلَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ لِيَعُودَهُ ، فَسَأَلَهُ :

وَاللهِ يَارَسُولَ اللهِ إِنِّى لأَرَى فى وَجْهِكَ شَيْئًا ، لَكَأَنَّكَ سَمِعْتَ شَيْئًا تَكْرَهُهُ !

أَجَابَ الرَّسُولُ :

أَجَلْ ! !

ثَمَّ أَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِن ابْنِ أُبَىٍّ .

فَقَالَ سَعْدٌ :

يَارَسُولَ اللهِ ، اُرْفُقْ بِهِ ، فَوَاللهِ لَقَدْ جَاءَنَا اللهِ بِكَ ، وَإِنَّا لَنَنْظِمُ لَهُ الْخَرَزَ لِنُتَوِّجَهُ ، فَوَاللهِ إِنَّهُ لَيَرَى أَنْ قَدْ سَلَبَتْهُ مُلْكًا .

وَهٰكَذَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَعْلَمُونَ حَقَّ الْعِلْمِ أَنَّ أَكْثَرَ الْمُنَافِقِينَ مَا ضَغَنُوا

عَلَى النَّبِيِّ ، وَحَاوَلُوا تَسْفِيهَ رِسَالَتِهِ إِلاَّ كَانَ رَائِدُهُمْ مِنْ ذٰلِكَ مَصْلَحَةً ذَاتِيَّةً ، وَالدَّافِعُ لَهُمْ غَرَضاً دُنْيَوِيًّا عَاجِلاً .

وَكَانَ هُنَاكَ أَيْضًا كَثِيرٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مِمَّنْ كَانُوا يُؤْذُونَ الرَّسُولَ ، وَيَسِيرُونَ بِالْوَقِيعَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ بَعْضِهِمْ وَبَعْضٍ ، وَكَانَ اللهُ يُنْزِلُ عَلَى مُحَمَّدٍ مَا يَكْشِفُ لَهُ عَنْ صُدُورِهِمْ ، وَيُبَيِّنُ لَهُ سَرِيرَةَ نُفُوسِهِمْ ، وَكَانَ أَشَدَّ هٰؤُلاَءِ نِفَاقًا نَبْتَلُ بْنُ الْحَارِثِ ، حَتَّى إِنَّ النَّبِيَّ لَكَانَ يَصِفُ سُوءَهُ ، وَيَنْعَتُ ضَلاَلَهُ بِقَوْلِهِ :

مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الشَّيْطَانِ ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى نَبْتَلَ بْنِ الحَارِثِ !

وَكَانَ جُلاَسٌ وَالْحَارِثُ ابْنَا سُوَيْدِ بْنِ الصَّامِتِ أَيْضًا مِن الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ أَنْزَلَ اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ بِشَأْنِهِمْ مِنَ الآيَاتِ مَا كَانَ لَهُ هُدًى إِلَى مَا يَتَّخِذُ مِنْ حُكْمٍ ، وَيَسْلُكُ مِنْ سَبِيلٍ .

وَكَانَ الدَّاعِي لِمَا أَنْزَلَهُ اللهُ فِيهِمَا أَنَّ جُلاَسًا عَادَ يَوْمًا إِلَى دَارِهِ بَعْدَ جُلُوسِهِ إِلَى مَجْلِسٍ لِمُحَمَّدٍ فَاسْتَلْقَى عَلَى فِرَاشِهِ ثُمَّ قَالَ :

لَئِنْ كانَ هٰذَا الرَّجُلُ صَادِقاً لَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحُمُرِ.

فَسَمِعَ مَقالَتَهُ هٰذِهِ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ، وَكَانَ ابْنًا لِزَوْجَةِ جُلاَّسٍ، تَرَبَّى فى حِجْرِهِ، وشَبَّ بِدَارِهِ، إلاَّ أَنَّهُ كانَ مُسْلِمًا، صَادِقَ الإِيمانِ، فَلَمْ يَسْتَطِعِ السُّكُوتَ عَلَى ما سَمِعَ، فابْتَدَرَ جُلاَّسًا يَقُولُ لَهُ:

يَا جُلاَّسُ، إِنَّكَ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وأَحْسَنُهُمْ عِنْدِى يَدًا، وأَعَزُّهُمْ عَلَيَّ أَنْ يُصِيبَهُ شَيْءٌ يَكْرَهُهُ، وَلَقَدْ قُلْتَ مَقالَةً لَئِنْ رَفَعْتُها عَلَيْكَ لأَفْضَحَنَّكَ، وَلَئِنْ صَمَتُّ عَلَيْها لَيَهْلِكَنَّ دِينِى، وَلإِحْدَاهُما أَيْسَرُ عَلَيَّ من الأُخْرَى.

وبَعْدَ هٰذَا سارَ عُمَيْرٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ، وأَعْلَمَهُ بِمَا سَمِعَ مِنْ جُلاَّس، لِيَكُونَ عَلَى عِلْمٍ بِنِفاقِهِ، وبَيِّنَةٍ بِسَرِيرَتِهِ.

وسَارَ جُلاَّسٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ يُنْكِرُ مَقالَتَهُ، ويُكَذِّبُ ما نَقَلَ عُمَيْرٌ عَنْهُ، ويُقْسِمُ باللهِ عَلَى ذٰلِكَ، وَهُوَ يُرَدِّدُ:

لَقَدْ كَذَبَ عَلَيَّ عُمَيْرٌ!! ومَا قُلْتُ مَا قالَ عُمَيْرٌ!!

وسكتَ رَسُولُ اللهِ حتَّى تَأْتِيَهُ البيِّنَةُ ! فَأَنزَلَ اللهِ عَلَيْهِ :

« يَحْلِفُونَ باللهِ مَا قَالُوا ، وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ، وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ ، وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ، وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فى الدُّنْيا وَالآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ فِى الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ » .

وَمِنْ هٰذِهِ الآيَاتِ عَرَفَ النَّبِىُّ مَا كَانَ يَلْتَبِسُ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ جُلاَّسٍ ، وَعَلِمَ أَنَّ عُمَيْرًا كَانَ صَادِقاً ، وأَنَّ جُلاَّسًا كَانَ كَاذِبًا . وَعَلِمَ جُلاَّسٌ ما أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ مِنْ آياتٍ ، ومَا وَعَدَ اللهُ رَسُولَهُ بِهِ مِنْ مَغْفِرَةٍ لِمنْ تَابَ وَأَنَابَ ، فَتَقَدَّمَ مِنَ الرَّسُولِ تَائِبًا مُسْتَغْفِرًا ، وَحَسُنَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ تَوْبَتُهُ ، وَعُرِفَ مِنْهُ الْخَيْرُ فى الإِسْلام .

أَمَّا أَخُوهُ الْحَارِثُ بْنُ سُوَيْدٍ فَقَدْ ظَلَّ عَلَى نِفَاقِهِ حَتَّى ارْتَدَّ وَخَرَجَ إِلَى مَكَّةَ ، ثُمَّ بَعَثَ بَعْدَ ذٰلِكَ لأَخِيهِ جُلاَّسٍ يَطْلُبُ أَنْ يَعْرِضَ تَوْبَتَهُ عَلَى الرَّسُولِ

حَتَّى يَعُودَ إِلَى قَوْمِهِ . فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ فِيهِ أَنْ :

« كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ، وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ ، وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ؟ ! ! وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

وَهٰكَذَا لَمْ يَقْبَلِ اللهِ تَوْبَةَ مَنِ ارْتَدَّ بَعْدَ إِسْلاَمٍ ، وَكَفَرَ بَعْدَ إِيمَانٍ ، وَبَعْدَ أَنْ شَهِدَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ عَلَى حَقٍّ وَأَنَّهُ قَدْ جَاءَ بِآيَاتٍ بَيِّنَاتٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ .

وَهٰكَذَا كَانَ يُلاَقِى النَّبِىُّ مِنْ كَيْدِ الْمُنَافِقِينَ وَعَنَتِهِمْ وَضَلاَلِهِمُ الشَّىْءَ الْكَثِيرَ ، وَلٰكِنَّ ذٰلِكَ مَا كَانَ لِيَقْصُرَ بِهِ عَنْ تَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ ، وَلاَ لِيَصْرِفَهُ عَنْ تَدْبِيرِ مَا فِيهِ صَالِحُ الْمُسْلِمِينَ .

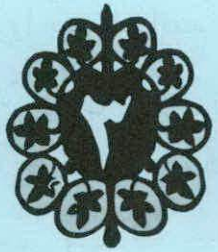

كَانَ النَّبِىُّ فِى أَثْنَاءِ ذٰلِكَ يَصْرِفُ أَكْثَرَ وَقْتِهِ فى مَسْجِدِهِ : يُعَرِّفُ الْمُسْلِمِينَ تَعَالِيمَ دِينِهِمْ ، وَيُبَصِّرُهُمْ بِمَا فى دِينِهِمْ هٰذَا مِنْ مَعَانِىَ عَالِيَةٍ سَامِيَةٍ سَمْحَةٍ ، تَدْعُو إِلَى إِخَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَحُثُّ عَلَى ضَرُورَةِ تَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ ، وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى مَا يَجِبُ عَلَيْهِمُ اتِّبَاعُهُ لِيَكُونُوا مُؤْمِنِينَ مُخْلِصِينَ ، وَإِلَى مَا يَلْزَمُ عَلَيْهِمْ إِتْيَانُهُ لِيَنَالُوا رِضَا اللهِ ، وَيَحْظَوْا بِعَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ .

وَكَانَ النَّبِىُّ إِذَا ما أَرَادَ أَنْ يَخْطُبَ فى الْمُسْلِمِينَ ، أَو يَتحَدَّثَ إِلَيْهِمْ حَدِيثًا جَدِيدًا – يَقِفُ بِمَسْجِدِهِ الَّذِى يَؤُمُّ فِيهِ الْمُسْلِمِينَ للصَّلاَةِ ، وَيَجْتَمِعُ بِهِمْ فِيهِ لِيَتْلُوَ عَلَيْهِمْ مَا يُنْزِلُ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ قُرْآنٍ ، فَيَسْتَنِدُ بِظَهْرِهِ إِلَى جِذْعٍ مِنْ جُذُوعِ النَّخْلِ الَّتِى يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا سَقْفُ الْمَسْجِدِ ، ثُمَّ يَأْخُذُ فى خُطْبَةِ الْمُسْلِمِينَ وَنَصِيحَتِهِمْ .

ثُمَّ كَانَ أَنْ أَمَرَ النَّبِىُّ ، فَصَنَعَ لَهُ الصَّانِعُ مِنْبَرًا مِنْ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ ، كَانَ يَقِفُ عَلَى دَرَجَتِهِ الْأُولَى إِذَا مَا أَرَادَ الْخَطَابَةَ وَيَجْلِسُ عَلَى دَرَجَتِهِ الثَّانِيَةِ إِذا مَا أَرَادَ التَّحَدُّثَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ .

نَعِمَ الْمُهَاجِرُونَ فى هٰذِهِ الْفَتْرَةِ بِقُرْبِ نَبِيِّهِمْ ، قُرْبًا نَالُوا فِيهِ كُلَّ مَا كَانَتْ تَتُوقُ إِلَيْهِ نُفُوسُهُمْ قَبْلَ الْهِجْرَةِ مِنَ الْجُلُوسِ إِلَيْهِ عَلاَنِيَةً ، وَالاسْتِمَاعِ إِلَى تَعَالِيمِهِ وَإِرْشَادِهِ ، وَحَظِىَ الأَنْصَارُ بِمُرْشِدٍ وَنَاصِحٍ جَمَعَ كَلِمَتَهُمْ وَآلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ .

كَانَ النَّبِىُّ لِلْمُسْلِمِينَ كَافَّةً أَبًا عَطُوفاً رَحِيماً ، وَكَانَ لَهُمْ أَخاً مُحِبًّا نَاصِحاً ، وَكَانَ فَوْقَ هٰذَا وَذَاكَ قُدْوَةً حَسَنَةً لَهُمْ بِمَا كَانَ يَأْتِيهِ مِنْ أَعْمَالٍ ، وَيَفْعَلُهُ مِنْ أَفْعَالٍ .

كَانَ لا يُقَابِلُ أَحَداً مِنْ أَصْحَابِهِ إِلاَّ بَدَأَهُ بِالسَّلاَمِ وَالْمُصَافَحَةِ ، وَكَانَ لاَ يَلْتَقِى فى طَرِيقِهِ بِمُسْلِمٍ إِلاَّ عَلاَ وَجْهَهُ السُّرُورُ وَالْبَشَاشَةُ ، وَمَا جَلَسَ إِلَيْهِ أَحَدٌ فى حَاجَةٍ إِلاَّ خَفَّ إِلَيْهِ يَسْأَلُهُ عَنْ حَاجَتِهِ ، وَهٰكَذَا كَانَ دَائِمًا طَيِّبَ النَّفْسِ سَمْحًا مُتَوَاضِعًا .

وَخَرَجَ يَوْماً إِلَى جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فى مجْلِسٍ لَهُمْ ، فَنَهَضُوا قَائِمِينَ لِقُدُومِهِ فَقَالَ لَهُمْ :

لاَ تَقُومُوا كَمَا يَقُومُ الْأَعَاجِمُ يُعَظِّمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا .

وَكَانَ يَقُولُ لأَصْحَابِهِ إِذَا مَا حَاوَلوا تَفْخِيمَهُ وَإِطْرَاءَهُ :

لاَ تُطْرُونِى كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللهِ فَقُولُوا :

عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ !

وَهٰكَذَا كَانَ لاَ يَمِيلُ لِمَظَاهِرِ السُّلْطَانِ ، وَلاَ يُحِبُّ التَّفَاخُرَ ، كَمَا كَانَ نَمُوذَجًا لِلْمُسْلِمِينَ بِوَافَائِهِ ، وَكَانَ مِنْ نَصَائِحِهِ لِلْمُسْلِمِينَ فى ذٰلِكَ قَوْلُهُ فى خُطْبَةٍ لَهُ :

مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقِىَ وَجْهَهُ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقَّةٍ مِنْ تَمْرٍ فَلْيَفْعَلْ ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ ، فَإِنَّ بِهَا تُجْزَى الْحَسَنَةُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا .

وَسَأَلَهُ يَوْمًا رَجُلٌ :

أَىُّ الْإِسْلاَمِ خَيْرٌ ؟

فَأَجَابَهُ :

تُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ .

وَهٰكَذَا كَانَ يَنْعَمُ الْمُهَاجِرونَ ، وَيَحْظَى الْأَنْصَارُ بِتَعَالِيمِ نَبِيِّهِمْ . وَهٰكَذَا مَرَّتْ بِهِمْ فَتْرَةٌ مِنَ الوَقْتِ هَدَءُوا فِيهَا ، وَسَكَنُوا بِرَغْمِ مُشَاغَبَةِ الْيَهُودِ وَمُشَاكَسَةِ

الْمُنَافِقِينَ .

وَفى هَذِهِ الْفَتْرَةِ أَمَرَ اللهُ مُحَمَّدًا بِتَحْوِيلِ قِبْلَةِ الصَّلاَةِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى بَيْتِ اللهِ الْحَرامِ ، وَفِيهَا فُرِضَ الصِّيَامُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، كَمَا فُرِضَتِ الزَّكَاةَ .

وَفِيهَا اتَّخَذَ الْمُسْلِمُونَ الأَذَانَ إِعْلاَناً لِمَوَاقِيتِ صَلاَتِهِمْ ، بَعْدَمَا كَانُوا يَجْتَمِعُونَ إِلَيْهَا دُونَ تَنْبِيهٍ أَوْ إِرْشَادٍ .

وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ بَحَثَ مُحَمَّدٌ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ فِيمَا يَتَّخِذُونَ مِنْ وَسَائِلَ لإِعْلاَنِ مَوَاقِيتِ الصَّلاَةِ لِلنَّاسِ : فَفَكَّرَ مُحَمَّدٌ فى أَنْ يَتَّخِذَ لِذٰلِكَ الْبُوقَ كَمَا يَفْعَلُ الْيَهُودُ ، وَلٰكِنَّهُ عَادَ فَكَرِهَ هٰذِهِ الْفِكْرَةَ وَعَدَلَ عَنْهَا ، ثُمَّ خَطَرَ لَهُ أَنْ يَتَّخِذَ لِذٰلِكَ النَّاقُوسَ كَمَا يَفْعَلُ النَّصَارَى ، فَلَمَّا أُعْجِبَ الْمُسْلِمُونَ بِهٰذَا الْخَاطِرِ ، وَصَادَفَ هَوًى مِنْ نُفُوسِهِمْ أَمَرَ النَّبِىُّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَنْ يَتَوَلَّى أَمْرَ إِقَامَةِ النَّاقُوسِ وَالإِشْرَافَ عَلَى إِعْدَادِهِ .

وَتَعَهَّدَ عُمَرُ أَنْ يَقُومَ بِمَا أُمِرَ بِهِ ، وَبَيْنَمَا هُوَ بِسَبِيلِ تَنْفِيذِ الْفِكْرَةِ ، وَالاِسْتِعْدَادِ لِشِرَاءِ خَشَبَتَيْنِ لإِقَامَةِ النَّاقُوسِ – رَأَى فِى الْمَنَامِ هَاتِفاً يَهْتِفُ بِهِ :

لاَ تَجْعَلُوا النَّاقُوسَ ، بَلْ أَذِّنُوا لِلصَّلاَةِ !

وَهَبَّ عُمَرُ مِنْ نَوْمِهِ يَبْغِى الذَّهَابَ إِلَى رَسُولِ اللهِ لِيُحَدِّثَهُ بِمَا رَأَى ، وَبَيْنَمَا هُوَ يُعِدُّ نَفْسَهُ لِذٰلِكَ وَصَلَ إِلَى سَمْعِهِ صَوْتٌ رَخِيمٌ نَدِىٌّ يُؤَذِّنُ :

اَللهُ أَكْبَرُ ، اَللهُ أَكْبَرُ ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اَللهُ ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ . حَىَّ عَلَى الصَّلاَةِ . حَىَّ عَلَى الْفَلاَحِ . اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ . لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ .

فَخَرَجَ عُمَرُ يَجُرُّ رِدَاءَهُ يَقْصِدُ مَسْجِدَ رَسُولِ اللهِ ، فَلَمَّا كَانَ بِالْقُرْبِ مِنْهُ شَاهَدَ بِلاَلاً يَعْتَلِى دَارًا عَالِيَةً بِالْقُرْبِ مِنَ الْمَسْجِدِ وَهُوَ يُرَدِّدُ الأَذَانَ بِصَوْتِهِ الرَّطْبِ الرَّخِيمِ .

فَسَأَلَ عُمَرُ مَنْ تَجَمَّعَ مِنَ النَّاسِ حَوْلَ الْمَسْجِدِ :

مَا الَّذِى جَعَلَ بِلاَلاً يُؤَذِّنُ بِمَا يُؤَذِّنُ بِهِ ؟

فَقِيلَ لَهُ :

لَقَدْ أَتَى عَبْدُ اللهِ بنُ زَيْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ يَقُصُّ عَلَيْهِ رُؤْيَا رَآهَا فِى نَوْمِهِ . فَقَالَ : لَقَدْ طَافَ بِى يَا رَسُولَ اللهِ فِى هٰذِهِ اللَّيْلَةِ طَائِفٌ ، وَهُوَ أَنِّى رَأَيْتُ رَجُلاً يَحْمِلُ بِيَدِهِ نَاقُوسًا .

فَقُلْتُ لَهُ : يَا هٰذَا ، أَتَبِيعُ هٰذَا النَّاقُوسَ ؟

فَسَأَلَنِى :

وَمَا تَصْنَعُ بِهِ ؟

قُلْتُ :

نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلاَةِ .

قَالَ :

أَفَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى خَيْرٍ مِنْ ذٰلِكَ ؟

قُلْتُ :

وَمَا هُوَ ؟

قَالَ :

أَنْ تُنَادِيَ : اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ . . .

وَتَلاَ عَبْدُ اللهِ عَلَى النَّبِيِّ صِيغَةَ الأَذَانِ ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ :

يَا عَبْدَ اللهِ ، إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٍّ ، فَقُمْ مَعَ بَلالٍ فَأَلْقِها عَلَيْهِ ، فَلْيُؤَذِّنْ بِهَا ، فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوتاً مِنْكَ .

عِنْدَئِذٍ دَخَلَ عُمَرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ يَقُولُ :

يَا نَبِيَّ اللهِ ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ ، لَقَدْ رَأَيْتُ مِثْلَ الَّذِي رَأَى عَبْدُ اللهِ .

فَأَجَابَهُ الرَّسُولُ :

الْحَمْدُ للهِ عَلَى ذٰلِكَ ، ثُمَّ ابْتَسَمَ وَقَالَ لَقَدْ سَبَقَكَ بِذٰلِكَ الْوَحْيُ يَا عُمَرُ .

وَهٰكَذَا أُوحِيَ إِلَى النَّبِيِّ أَنْ يَتَّخِذَ الآذَانَ نِدَاءً لِلْمُسْلِمِينَ لِدَعْوَتِهِمْ إِلَى

الصَّلاَةِ ، وَظَلَّ بِلاَلٌ صَاحِبُ الصَّوْتِ النَّدِيِّ الرَّخِيمِ الْقَوِيِّ النافِذِ يَأْتِي كُلَّ مِيقَاتِ صَلاَةٍ ، فَيَعْتَلِي سَطْحَ مَنْزِلٍ عَالٍ مُجَاوِرٍ لِمَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ فَيُؤَذِّنُ عَلَى النَّاسِ :

اَللهُ أَكْبَرُ ، اَللهُ أَكْبَرُ . . .

كَانَ مُحَمَّدٌ وَالْمُهَاجِرُونَ مَعَهُ لاَ تَكَادُ أَنْ تَبْرَحَ أَذْهَانَهُمْ صُورَةُ مَكَّةَ ، وَلاَ يَكَادُ أَنْ يَغِيبَ عَنْ بَالِهِمْ أَمْرُ قُرَيْشٍ : فَمَكَّةُ هِيَ بَلَدُهُمْ وَوَطَنُهُمُ الَّذِي أُخْرِجُوا مِنْهُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا ، وَفِي مَكَّةَ كَعْبَتُهُمُ الَّتِي يَحِنُّونَ إِلَى الْحَجِّ إِلَيْهَا ، وَفِي مَكَّةَ لَهُمْ أَمْوالٌ وَدِيَارٌ وَمَتَاعٌ . وَبَيْنَ قُرَيْشٍ لَهُمْ أَقَارِبُ وَآبَاءٌ وَبَنُونَ ، وَبَيْنَ قُرَيْشٍ مُسْلِمُونَ لاَ يَزَالُونَ يُفْتَنُونَ عَنْ دِينِهِمْ وَيُعَذَّبُونَ .

وَفكَّرَ مُحَمَّدٌ فِيمَا يَجِبُ أَنْ يَتَّخِذَ فِى أمْرِ مَكَّةَ ، وَكَيْفَ يَفْتَحُ سَبِيلَهَا فى وَجْهِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ جَدِيدٍ ! ! وَفكَّرَ فِيمَا يَجِبُ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ خُطُوَاتٍ يَكُونُ فِيهَا نَصْرٌ وَنَفْعٌ واسْتِتْبَابٌ لأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَرْبَحُ مِنْ وَرَائِهَا مَكْسَبًا لِدَعْوَتِهِ وتَمْهِيداً لِنَشْرِ دِينِ اللهِ . وَبَعَثَ مُحَمَّدٌ بِجَمَاعَاتٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ يَعْتَرِضُونَ طَرِيقَ قَوَافِلِ قُرَيْشٍ الذَّاهِبَةِ إِلَى الشَّامِ لِلتِّجَارَةِ والْعَائِدَةِ مِنْهَا بِمَا ابْتَاعَتْ وَبِمَا قايَضَتْ وَبِمَا رَبِحَتْ .

وَخَرَجَ فِى جَمَاعَاتٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ إِلَى بَعْضِ الْقَبَائِلِ ، فَكَانَ أَنْ حَالَفَهَا ، وَعَقَدَ مُعَاهَدَاتِ مُوَادَعَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ، فَلاَ يَتَعَرَّضُ لَهُمْ وَلاَ يَتَعَرَّضُونَ لَهُ .

وَبِهٰذَا قَوِىَ جَانِبٌ مِنْ جَوَانِبِ الْمُسْلِمِينَ ، وَاخْتَطَّ لَهُمْ مُحَمَّدٌ مَكَانَةً خَلَقَتْ لَهُمْ هَيْبَةً فى نُفُوسِ أَعْدَائِهِمْ مِنَ قُرَيْشٍ ، فَبَاتُوا وَهُمْ يَخْشَوْنَهُ عَلَى تِجَارَتِهِمْ أَنْ يُصِيبُوا مِنْهَا بِمَا تَرَكُوا بِمَكَّةَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَبِمَا خَلَّفُوا بِهَا مِنْ دِيَارٍ

وَمَتَاعٍ ، وَأَصْبَحُوا وهُمْ يُفَكِّرُونَ فِيمَا كَانَ يَرْمِى إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ مِنْ مُسَالَمَتِهِمْ وَعَدَمِ التَّعَرُّضِ لَهُمْ .

كَمَا كَانَ لِذٰلِكَ أَثَرٌ فِى نُفُوسِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ كَانُوا لاَ يَفْتُرُونَ عَنْ مُنَاوَأَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالسَّيْرِ بَيْنَهُمْ بِدَسَائِسِهِمْ وَوَقِيعَتِهِمْ .

وَظَلَّتْ هٰذِهِ السَّرِيَّاتُ تَخْرُجُ فِيمَا يُرَادُ لَهَا مِنْ أَغْرَاضٍ ، وَيُخْتَطُّ لَهَا مِنْ سَيْرٍ ، يَرْأَسُهَا تَارَةً أَفْرَادٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَتَارَةً أُخْرَى يَرْأَسُهَا مُحَمَّدٌ نَفْسُهُ ، فَتَعْقِدُ الْمُحَالَفَاتِ مَعَ الْقَبَائِلِ ، أَوْ تَعْتَرِضُ طَرِيقَ قَوَافِلِ قُرَيْشٍ ، وَتَتَعَرَّفُ أَخْبَارَهُمْ ، ثُمَّ تَعُودُ دُونَ أَنْ يَصْدُرَ عَنْهَا قِتَالٌ ، أَوْ يَمَسَّهَا ضَرَرٌ ، حَتَّى أَمَرَ النَّبِىُّ عَبْدَ اللهِ بْنَ جَحْشٍ بِالتَّأَهُّبِ لِلْخُرُوجِ عَلَى رَأْسِ إِحْدَى هٰذِهِ السَّرِيَّاتِ .

فَلَمَّا تَأَهَّبَ عَبْدُ اللهِ لِمَا طَلَبَ مِنْهُ النَّبِىُّ ، أَعْطَاهُ مُحَمَّدٌ كِتَابًا وَقَالَ لَهُ .

يَا عَبْدَ اللهِ ، لاَ تَنْظُرْ فِى كِتَابِى هٰذا إِلاَّ بَعْدَ مَسِيرِكَ بِيَومَيْنِ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَامْضِ لِمَا جَاءَ بِهِ ، وَلاَ تَسْتَكْرِهْ مِنْ أَصْحَابِكَ أَحَداً .

وَغَادَرَ عَبْدُ اللهِ الْمَدِينَةَ فِى شَهْرِ رَجَب ، وَبَعْدَ مَسِيرَةِ يَوْمَيْنِ مِنْ خُرُوجِهِ فَتَحَ كِتَابَ الرَّسُولِ وَقَرَأَهُ ، فَإِذَا فِيهِ :

إِذَا نَظَرْتَ فى كِتَابِى هٰذَا فَامْضِ حَتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ ، فَتَرَصَّدْ بِهَا قُرَيْشاً ، وَتَعَلَّمْ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ .

فَلَمَّا أَلَمَّ عَبْدُ اللهِ بِمَا فى كِتَابِ الرَّسُولِ ، وَبِمَا يَطْلُبُ مِنْهُ قَالَ : سَمْعًا وَطَاعَةً .

ثُمَّ قَالَ لأَصْحَابِهِ :

قَدْ أَمَرَنِى رَسُولُ اللهِ أَنْ أَمْضِىَ إِلَى نَخْلَةَ ، أَرْصُدُ بِهَا قُرَيْشًا حَتَّى آتِيَهُ مِنْهُمْ بِخَبَرٍ ، وَقَدْ نَهَانِى أَنْ أَسْتَكْرِهَ أَحَداً مِنْكُمْ . فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُرِيدُ الذَّهَابَ فَلْيَنْطَلِقْ ، وَمَنْ كَرِهَ ذٰلِكَ فَلْيَرْجِعْ ، أَمَّا أَنَا فَمَاضٍ لأَمْرِ رَسُولِ اللهِ .

وَلَمْ يَتَخَلَّفْ أَحَدٌ مِنْ رِفَاقِ ابْنِ جَحْشٍ عَمَّا رَغِبَ إِلَيْهِمُ النَّبِىُّ ، فَسَارُوا جَمِيعاً فى طَرِيقِهِمْ إِلَى نَخْلَةَ حَتَّى إِذَا مَا كَانُوا بِمَكَانٍ يُقَالُ لَهُ بَحْرَان – أَضَلَّ

سَعْدُ بْنُ أَبِى وَقَّاصٍ وَعُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ بَعِيرًا لَهُمَا ، فَتَخَلَّفَا عَنِ الْجَمَاعَةِ فِى طَلَبِهِ ، وَرَاحَا يَتَعَقَّبَانِهِ لِيَعُودَا بِهِ ، فَالْتَقَتْ بِهِمَا جَمَاعَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَأَسَرَتْهُمَا وَسَارَتْ بِهِمَا إِلَى مَكَّةَ .

أَمَّا عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ فَقَدْ سَارَ هُوَ وَجَمَاعَتُهُ حَتَّى نَزَلُوا نَخْلَةَ ، وَهُنَاكَ مَكَثُوا يَتَرَقَّبُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى إِذَا كَانَ آخِرُ لَيْلَةٍ مِنْ رَجَبٍ مَرَّتْ بِهِمْ عِيرٌ تَحْمِلُ زَبِيباً وَجُلُوداً وَتِجَارَةً مِمَّا كَانَتْ تَتَّجِرُ فِيهِ قُرَيْشٌ وَتَشَاوَرَ عَبْدُ اللهِ وَأَصْحَابُهُ فِيمَا يَفْعَلُونَ إِزَاءَ هٰذِهِ الْعِيرِ ؟ !

وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :

وَاللهِ لَئِنْ تَرَكْتُمُ الْقَوْمَ هٰذِهِ اللَّيْلَةَ لَيَدْخُلُنَّ الْحَرَمَ ، فَلَيَمْتَنِعُنَّ مِنْكُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ لَتَقْتُلُنَّهُمْ فِى الشَّهْرِ الْحَرَامِ .

وَتَرَدَّدَ الْقَوْمُ طَوِيلاً ، وَهَابُوا الإِقْدَامَ عَلَى الْقِتَالِ ، وَأَخِيراً شَجَّعُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَيْهِ ، وَأَجْمَعُوا عَلَى قِتَالِ أَصْحَابِ الْعِيرِ ، وَأَخْذِ مَا مَعَهُمْ مِنْ تِجَارَةٍ بِبَعْضِ

مَا أَخَذَتْ قُرَيْشٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَمَتَاعِهِمْ .

وَهٰكَذَا تَأَهَّبَ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ وَجَمَاعَتُهُ لِقِتَالِ عِيرِ تِجَارَةِ قُرَيْشٍ ، وَمِنْ ثَمَّةَ فَقَدْ شَدَّ واقِدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التَّمِيمِى قَوْسَهُ ، وَرَمَى بِسَهْمٍ أَصَابَ عُمَرَ ابْنَ الْحَضْرَمِىِّ صَاحِبَ عِيرِ قُرَيْشٍ فَقَتَلَهُ .

وَكَانَ بَعْدَ ذٰلِكَ أَنْ أَسَرَتْ سَرِيَّةُ ابْنِ جَحْشٍ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ رَجُلَيْنِ ، هُمَا : عُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ، وَالْحَكَمُ بْنُ كَيْسَانَ ، وَاسْتَوْلَتْ عَلَى مَا كَانَتْ تَحْمِلُ الْعِيرُ مِنْ تِجَارَةٍ ، ثُمَّ كَرَّتْ رَاجِعَةً إِلَى الْمَدِينَةِ .

وَقَدِمَ ابْنُ جَحْشٍ وَأَصْحَابُهُ بِعِيرِ التِّجَارَةِ وَالأَسِيرَيْنِ إِلَى النَّبِىِّ ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ تَعَرَّفُوا فِيهِ الْكَدَرَ وَقَرَءُوا فى وَجْهِهِ الْغَضَبَ ، وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ قَدِ اسْتَنْكَرَ مَا فَعَلُوا عِنْدَمَا قَالَ لَهُمْ :

مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ فى الشَّهْرِ الْحَرَامِ ! !

وَأُسْقِطَ فى أَيْدِى ابْنِ جَحْشٍ وَأَصْحَابِهِ ، وَعَرَفُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَتَوْا أَمْراً

شَدِيداً ، نَالُوا بِهِ نِقْمَةَ اللهِ وغَضَبَ الرَّسُولِ .

وَالْتَفَّ الْمُسْلِمُونَ مِنْ حَوْلِهِمْ يُبَكِّتُونَهُمْ وَيُعَنِّفُونَهُمْ عَلَى مَا صَنَعُوا ، مِمَّا كَانَ سَبَبًا لإِغْضَابِ الرَّسُولِ ، وَدَاعِيًا لَهُ عَلَى وَقْفِ عِيرِ قُرَيْشٍ وَأَسِيرَيْهَا ، وَالتَّنْبِيه عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِعَدَمِ التَّعَرُّضِ لَهُمْ .

وَشَاعَ خَبَرُ مُقَاتَلَةِ أَصْحَابِ الرَّسُولِ لِعِيرِ قُرَيْشٍ فى الشَّهْرِ الْحَرَامِ سَرِيعًا بَيْنَ الْكَثِيرِ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ مِمَّا كَانَ وَسِيلَةً طَيِّبَةً لأَعْدَاءِ الرَّسُولِ لِكَى يَنَالُوا مِنْهُ وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلِكَى يُعَرِّضُوا بِهِمْ تَعْرِيضاً مَهِينًا جَارِحًا .

وَظَلَّ أَبْنَاءُ قُرَيْشٍ وَلاَ حَدِيثَ لَهُمْ إِلاَّ مَا صَنَعَ مُحَمَّدٌ ، وَمَا أَتَى الْمُسْلِمُونَ مِنْ حَرَامٍ ، وَهُمْ لا يَكُفُّونَ عَنْ تَرْدِيدِ قَوْلِهِمْ :

قَدِ اسْتَحَلَّ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ الشَّهْرَ الْحَرَامَ ، وَسَفَكُوا فِيهِ الدَّمَ ، وَأَخَذُوا فِيهِ الأَمْوَالَ ، وأَسَرُوا فِيهِ الرِّجَالَ .

فَكَانَ جَوَابُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا لاَ يَزَالُونَ بِمَكَّةَ عَلَى ذٰلِكَ قَوْلَهُمْ :

إِنَّمَا أَصَابُوا مَا أَصَابُوا فى شَعْبَانَ .

أَمَّا الْيَهُودُ فَقَدْ تَفَاءَلُوا بِمَا أَتَى أَصْحَابُ الرَّسُولِ خَيْرًا ، وَظَنُّوا بِذٰلِكَ أَنَّ اللهَ سَيُحِلُّ نِقْمَتَهُ بِالْمُسْلِمِينَ حَتْمًا ، وَيَنْزِلُ بِهِمْ لَعْنَتَهُ وَغَضَبَهُ .

وَبَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ فى حُزْنٍ وَوُجُومٍ ، وَقَدِ اعْتَرَتْهُمُ الْوَسَاوِسُ وَانْتَابَهُمُ الْقَلَقُ ، لاِعْتِكَافِ رَسُولِهِمْ وَغَضَبِهِ – إِذْ بِالرَّسُولِ يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ وَقَدْ عَلاَ وَجْهَهُ الْبِشْرُ ، وَظَهَرَتْ عَلَيْهِ عَلاَمَاتُ الرِّضَا .

وَالْتَفَّ الْمُسْلِمُونَ مِنْ حَوْلِ رَسُولِهِمْ ، وَقَدِ ابْتَهَجُوا لِبِشْرِهِ ، وَسُرُّوا لِرِضَاهُ ، فَتَلاَ عَلَيْهِمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ كَانَ فِيهَا مَا فَثَّأَ عَنْهُ الْغَضَبَ ، وَكَانَ بِهَا مَا ارْتَاحَتْ لَهُ نَفْسُهُ ، وَاطْمَأَنَّ لَهُ قَلْبُهُ ، وَكَانَ مَا تَلاَهُ الرَّسُولُ لِصَحْبِهِ الْمُسْلِمِينَ هُوَ قَوْلُ اللهِ لَهُ :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ : قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ، وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَكُفْرٌ بِهِ ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ ،

وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلاَ يَزَالونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا » .

وَسُرِّىَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ ، وَذَهَبَتْ عَنْ نُفُوسِهِمُ الْخَشْيَةُ ، وَانْقَشَعَ عَنْ قُلُوبِهِمُ الْخَوْفُ ، فَقَدْ عَرَفُوا مِنْ آيَاتِ اللهِ أَنَّ اللهَ يَرَى أَنَّ الْقِتَالَ فى الشَّهْرِ الْحَرَامِ كَبِيرٌ ، وَلٰكِنْ أَكْبَرُ مِنْهُ عِنْدَ اللهِ مَا فَعَلَتْ قُرَيْشٌ بِالْمُسْلِمِينَ ، حَيْثُ أَخْرَجَتْهُمْ مِنْ بِلاَدِهِمْ وَدِيَارِهِمْ ، وَأَبْعَدَتْهُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . وَأَنَّ اللهَ يَرَى أَنَّ فِتْنَةَ الْمُشْرِكِينَ لِلْمُسْلِمِينَ فى دِينِهِمْ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ، وَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ لاَ يَأْلُونَ مِنْ قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ لِيَرُدُّوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَلَنْ يَكُفُّوا عَنْ قِتَالِهِمْ هٰذَا مَا دَامُوا يَسْتَطِيعُونَ إِلَى ذٰلِكَ سَبِيلاً .

وَهٰكَذَا كَانَتْ آيَاتُ اللهِ هٰذِهِ الَّتِى أَنْزَلَهَا عَلَى نَبِيِّهِ رَحْمَةً بِالْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَرْتَجِفُونَ خَوفًا مِنْ غَضَبِ اللهِ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ فِيهَا بِلْسَمٌ وَرَاحَةٌ وَطُمَأْنِينَةٌ لِقَلْبِ مُحَمَّدٍ .

وَقَبَضَ مُحَمَّدٌ عِيرَ قُرَيْشٍ وَتِجَارَتَهَا وَالأَسِيرَيْنِ ، فَفَرَّقَ التِّجَارَةَ عَلَى مَنْ لَهُ الْحَقُّ فِيهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ . أَمَّا الأَسِيرَانِ فَقَدْ بَعَثَتْ قُرَيْشٌ تَطْلُبُ فِدَاءَهُمَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِالْمَالِ ، فَرَدَّ مُحَمَّدٌ عَلَى ذٰلِكَ .

لاَ نَفْدِيكُمُوهُمَا حَتَّى يَقْدم صَاحِبَانَا (يَعْنِى بِذٰلِكَ سَعْدَ بْنَ أَبِى وَقَّاصٍ وَعُتْبَةَ بْنَ غَزْوَانَ اللَّذَيْنِ أَسَرَتْهُمَا قُرَيْشٌ) فَإِنَّا نَخْشَاكُمْ عَلَيْهِمَا ، فَإِنْ تَقْتُلُوهُمَا نَقْتُلْ صَاحِبَيْكُمْ .

فَبَعَثَتْ قُرَيْشٌ إِلَى مُحَمَّدٍ بِأَسِيرَيْهَا ، فَفَدَى بِهِمَا مُحَمَّدٌ أَسِيرَيْهِ . فَأَمَّا أَحَدُهُمَا وَهُوَ الْحَكَمُ بْنُ كَيسَانَ فَقَدْ مَالَ قَلْبُهُ إِلَى الإِسْلاَمِ فَأَسْلَمَ ، وَأَقَامَ بِالْمَدِينَةِ ، وَأَمَّا الآخَرُ فَعَادَ كَافِرًا إِلَى مَكَّةَ .

أَمَّا عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ وَأَصْحَابُهُ فَقَدْ أَثْلَجَ صُدُورَهُمْ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ بِشَأْنِهِمْ ، مِمَّا عَنِىَ عَفْوًا عَنْهُمْ ، وَمَغْفِرَةً لَهُمْ . وَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لِلْمُسْلِمِينَ فِى الجِهَادِ ، وَسَمَحَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِقِتَالِ مَنْ يُحَاوِلُونَ فِتْنَتَهُمْ عَنْ

دِينِهِمْ ، وَرَدِّهِمْ عَنِ الإِسْلامِ وَلَوْ كَانَ ذٰلِكَ فى الأَشْهُرِ الْحُرُمِ - طَمِعُوا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ جِهَادٌ فَوْقَ مَا جَاهَدُوا ، وأَنْ يَكُونَ لَهُمْ نَصِيبٌ فى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ غَيْرَ مَا قَاتَلُوا فَجَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ يَقُولُونَ :

يَارَسُولَ اللهِ ، أَنَطْمَعُ أَنْ تَكُونَ لَنَا غَزْوَةٌ نُعْطَى فِيهَا أَجْرَ الْمُجَاهِدِينَ .

فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ رَدًّا عَلَى سُؤَالِهِمْ :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فى سَبِيلَ اللهِ أُولٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

رقم الإيداع	١٩٨٠/٤٠١٠
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٧٣٣٧-١٠-٨

١/٧٩/٣٣٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)